فحتى ولو لم تكن آية فلتقرأ قبل كل تلاوة لا سيما القرآن، فكل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ فهو أقطع أو أبتر أو أجذم كما في مستفيض السُّنّة فهلّا تكون الفاتحة أمراً ذا بال وفي الصلاة وهي خير موضوع، وهذه عمود الدين وتلك عمود القرآن، إذاً فالصلاة دون بسملة مقطوعة بتراء والله منها براء.

وكما أن الفاتحة هي فاتحة الكتاب، فأولى بالبسملة لأنها فاتحة لكلّ كتاب من قرآن وسواه.

فكيف لا يجهر بها أو تترك من أصلها وهي إعلان ثناء على الله وكما يعلن بالثناء على غير الله: ﴿فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾[1] أشد نداء في الجهر به، وأشد ذكراً في إكثاره، وأشد تبركاً في الافتتاح به وأشد معرفياً في عبوديته:

ولأن القرآن هو كتاب من الله إلى الناس ليحيدوا عن أخلاق النسناس نرى كتاب الله يبدأ باسم الله ويختم بالناس، إيحاء بأنه يحمل جميع رحمات الله، عامة رحمانية، وخاصة رحيمية للجنة والناس وللعالمين أجمعين.

= جدعان أن العبادلة كانوا يستفتحون القراءة بـ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ يجهرون بها وهم: عبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير، وأخرج البزار والدارقطني والبيهقي في شعب الإيمان من طريق أبي الطفيل قال: سمعت علي بن أبي طالب عليه السلام وعماراً يقولان: إن رسول الله صلى الله عليه وآله كان يجهر في المكتوبات ببسم الله الرحمن الرحيم في فاتحة الكتاب، وأخرج الطبراني والدارقطني والبيهقي في شعب الإيمان من طريق أبي الطفيل والدارقطني والحاكم عن أنس قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يجهر بـ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ، وأخرج الدارقطني عن علي بن أبي طالب عليه السلام قال: كان النبي صلى الله عليه وآله يجهر ببِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ في السورتين جميعاً، وأخرج عن ابن عمر قال: صليت خلف النبي صلى الله عليه وآله وأبي بكر وعمر فكانوا يجهرون بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ، وأخرج عن النعمان بن بشير قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله: أمّني جبرئيل عليه السلام عند الكعبة فجهر بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ.

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٠٠.

وكما التنزيل بازغ باسم الله كذلك التأليف، فهو البداية وهو النهاية، وهو المبدأ وهو الغاية.

ولكي نقرأ القرآن سوراً أم آيات فلنبدأ بالاستعاذة ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾[1] فقل: أعوذ بالله - أو - أستعيذ بالله من الشيطان الرجيم.

يردّد المسلم هذه السورة قليلة الآيات، كثيرة الطويّات والمحتويات في الصلاة مرات ومرات، حين يقف بين يدي ربه مبتهلاً، فارضاً أو متنفلاً، ولا تقوم صلاة إلّا بها وكما استفاض عنه ﷺ: لا صلاة إلّا بفاتحة الكتاب.

وفيها من كليات التصورات الأصلية والعقيدة الإسلامية، والمشاعر السلمية السليمة، ما توحي بطرف من حكم اختيارها مناجاة في معراج الصلاة، فكل صلاة دونها باطلة، وكل صِلات من دونها عاطلة، كما وكل صراط غيرها مائلة قاحلة.

إن الصلاة وهي خير موضوع، وقد وضعت الحمد قبلها كخير موضوع في خير موضع، إنها تتبنى أركاناً معنوية هي الركينة فيها وقد تتبناها أركانها بسائر فروضها الظاهرية.

فلتعرف يا عارجاً معراج ربك من أنت؟ وأمام من واقف أنت؟ وماذا تعني فيما تفعله وتقوله أنت؟:

أنت اللّاشيء حقاً، مهما كنت شيئاً بما هباك الله، فكلّ شيئك أمام ربك لا شيء، فإنه الواهب كل شيء لكل شيء!

وهو كل شيء إذ خلق الشيء الذي منه كل شيء لا من شيء!

(١) سورة النحل، الآية: ٩٨.

أنت الفقير في غناك فكيف لا تكون فقيراً في فقرك، وهو الغني..

اعرف من أنت، وأمام من واقف أنت، وماذا تقول أو تعني بما تفعله أنت، ولتكن في صلاتك قطعاً بصلاتك عما سوى الله، وصلة كُلُّك بالله، ولا حول ولا قوة إلّا بالله.

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١﴾:

لأنها تحوي ما تحويه الحمد كما حوت هي القرآن كله، فالبسملة إذاً هي القرآن كله، فعلينا التدبر فيها بكل أناقة وعملاقة لكي نحصل - لأقل تقدير - على الأصول الثلاثة، المستفادة من خماسية الكلمات في البسملة.

فالباء هي مثلثة المعاني مصاحبة واستعانة وابتداء، والاسم مسبّعة المصاديق والحاصل واحد وعشرون أكثرها معنية بالبسملة، و«بسم» تتعلق بالمعاني الثلاثة: أبتدىء وأصاحب وأستعين باسم الله الرحمن الرحيم.

وهل الاسم من الوسم: العلامة؟ أو السّمو: الرفعة؟ ظاهر الأدب لفظياً والمناسبة معنوياً يساعد الوسم، قلباً للواو إلى الألف خلاف السّمو، وأن الاسم علامة لمسماه وليس يعلوه مرتفعاً عليه.

إلّا أن وصليَّة الألف حذفاً لها عند الوصل، دليل لعدم أصالة الألف بديلة عن الواو، ثم تصغيره على سُميّ وجمعه الأسماء دليل حذف الواو عن آخره، وإلّا فلا سميّ ولا أسماء ولا حذف للألف عند الوصل لو كانت من الأصل.

إذاً فالاسم من السُّمو الرفعة، رفعة العلامة على المعلم، في الدلالة دون الرتبة حيث الاسم يتقدم المسمى معرفة مهما كان المسمى يتقدمه مرتبة ورفعة.

وعلّه مشتق من الوسم والسمو معاً باعتبار المعنيين واللفظ للسمو، فهو

- إذاً - علامة للشيء تعلوه لتدل عليه، علوّ التدليل دون التعالي لديه، مهما كان أدنى منه أو يساويه أم ويعلو عليه.

ثم الاسم منه لفظي هو الأدنى علامة فإنه بالوضع، ومنه عيني وهو أعلى منه حيث الدلالة ذاتية دون وضع، ثم الاسم العيني لله تبارك وتعالى منه ذاتي كصفات ذاته الثلاث: الحياة والعلم والقدرة، أم فعلي كصفات الفعل المشتقة من صفات الذات، أم خلقي كسائر الخلق، فإنه مثل لله يدل عليه بما يفتقر في ذاته إليه.

١ - فمن أسمائه اللفظية: «الله - الرحمن - الرحيم» إمّا هيه.

٢ - وأسمائه الذاتية هي واقع الحياة والعلم والقدرة.

٣ - وأسمائه الفعلية هي واقع صفاته الفعلية.

٤ - ومن أسمائه الخلقية كلّ الخليقة.

٥ - ثم الخاص منها أنت الواقف أمامه.

٦ - ثم الأخص منها العبادة فإنها سمة من سماته.

٧ - ثم أخص الخواص هم أنبياء الله وأفضلهم خاتمهم وأئمة أهل بيته المعصومين عليهم السلام.

ففي اسمه اللفظي تأتي الابتداء والمصاحبة كما يروى عن الإمام علي عليه السلام: «إن العبد إذا أراد أن يقرأ أو يعمل عملاً فيقول: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ - أي: بهذا الاسم أعمل هذا العمل، فكل عمل يعمل يبدأ فيه ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ فإنه مبارك له فيه»[1] ثم لا استعانة بهذا الاسم إلّا بضرب من التأويل.

(١) تفسير البرهان نقلاً عن تفسير الإمام العسكري عليه السلام عن الإمام علي عليه السلام وعن محمد بن جرير الطبري بإسناده عن ابن عباس قال: إن أوّل ما نزل به جبرئيل على محمد صلى الله عليه وآله وسلم قال: يا محمد قل أستعيذ بالسميع العليم من الشيطان الرجيم ثم قال: قل: بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ، قال قال له جبرئيل: قل بسم الله يا محمد! يقول: اقرأ بذكر الله ربك وقم واقعد بذكر الله.

وفي أسماء الذاتية والفعلية تأتي الاستعانة كما عن الإمام علي الهادي عليه السلام: «أستعين على أموري كلها بالله الذي لا تحق العبادة إلّا له»[١] وأما الابتداء فضلاً عن المصاحبة فلا يناسبان هذه الأسماء، مهما صاحبنا الله بصفاته الفعلية أم والذاتية بضرب من التأويل، و«الاسم صفة لموصوف»[٢] ونحن لا نصاحب صفات الله أو نبتدئ بها، فإن صفاته تعالى تصاحبه ذاتية أم فعلية، ونحن نستعين بها فيما نروم من مرضاته.

وفي أسمائه الخلقية بوجه عام لا مصاحبة ولا استعانة ولا ابتداء إلّا في مثلث الخواص، اللّهم إلّا مصاحبة في عبادة الله والسجود لله فـ ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم...﴾[٣] واستعانة بهم فيما يصح سلوكاً إلى الله.

وفي ذاتك كاسم من أسمائه الخلقية تأتي مثلث معاني الباء، مصاحبة واستعانة وابتداء، أصاحب نفسي في عبادة الله وسواها فلأجرّدها عن الهوى حيث النفس آية من آيات الله فلتصاحب نفسها كآية تدل على الله.

وأبتدىء بنفسي في العبادة وسواها مما يرضاه الله، حيث البداية في الخير بازغة بنفسك ثم من سواك: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾[٤].

ثم ابتداءً بعبادة الله وبكل فعل يرضاه الله تقديماً لمرضاته على سواه، ومصاحبة لها على أية حال، واستعانة بها في كل حلٍّ وترحال: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾[٥] وكما عن الإمام الرضا عليه السلام:

---

(١) تفسير الإمام العسكري عن الإمام علي عليه السلام.
(٢) ابن بابويه بسنده عن ابن سنان قال: سألت أبا الحسن الرضا عليه السلام عن الاسم، ما هو؟ قال: صفة لموصوف.
(٣) سورة الرعد، الآية: ١٥.
(٤) سورة التحريم، الآية: ٦.
(٥) سورة البقرة، الآية: ٤٥.

أسِمُ على نفسي سمة من سمات الله وهي العبادة والسّمة هي العلامة[١].

ثم ابتداءً - في عبادة الله - برسول الله ﷺ وأهل بيت الرسالة كدلالة للطريق فهم السبل إلى الله والأدلّاء على الله.

واستعانة بهم في سلوكنا إلى الله، ومصاحبة لهم، فما صحبة الرسول هي ملازمته في حياته الجسدية الدنيوية، بل هي صحبته في رسالته الإلهية، استناناً بسنته واتباعاً لشرعته واستجابة لدعوته، فهم القائلون «نحن أسماء الله الحسنى» ويصدقهم قول الله. ﴿. . . وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾[٢] فإنهم الذوات القدسية من أهل بيت الرسالة المحمدية عليهم السلام كما ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ﴾[٣] يدل عليه حيث «هم» وهو لذوي العقول لا تعني إلّا إياهم!

فنحن في مثلث الاستعانة المصاحبة الابتداء للسبعة أسماء الله، إلّا ما لا يناسب ساحته وسماحته، فابتداء كل أمر ذي بال ببسم الله توحيد لله، وتركه إلحادٌ في الله، وإشراك غيره في الابتداء به ابتداع وإشراك بالله، وكل ذلك - لأقل تقدير - في لفظة القول، وعلى الموحد أن يوحد الله قالاً وحالاً وافعالاً.

ولأن الاسم في ﴿بِسْمِ﴾ جنسه لا شخصه، فقد تعني كلّ هذه الأسماء، حيث تتبنّاها «اللهِ - الرَّحْمنِ - الرَّحِيمِ».

فالله هو ذاته بصفاته الذاتية والفعلية كما هو اسمه اللفظي، والرحمن صفاته الفعلية العامة، والرحيم هي الخاصة، وهما تعمان المنفصلة وسواها وهكذا تعني البسملة ما تعنيه السبع المثاني والقرآن العظيم جملةً وتفصيلاً!

(١) تفسير البرهان ١: ٤٤ عن ابن بابويه القمي في توحيده بإسناده إلى علي بن الحسن الفضال عن أبيه قال سألت الرضا عليه السلام عن بسم الله قال. . .
(٢) سورة البقرة، الآية: ٣١.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٣١.

ثم «اللهِ - الرَّحْمنِ - الرَّحِيمِ» أسماء ثلاثة تكفي عن سائر الأسماء ولا تكفي عنها سائر الأسماء.

فـ«الله» هو اسم للذات المقدسة لا يسمى به سواه ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾[1] كلّا يا الله! وهو الاسم الأعظم الظاهر، كما «هو» هو الأعظم الباطن، وقد اشتقت منه كلمة التوحيد: «لا إِلهَ إِلَّا اللهُ» حيث ألّفت من حروفه الثلاثة، وكذلك «هو» في وجه[2].

وفيما يروى عن أمير المؤمنين عليه السلام «الله أعظم الأسماء من أسماء الله وهو الاسم الذي لا ينبغي أن يسمى به غير الله لم يتسم به مخلوق».

فطالما المشركون يسمون أصنامهم وطواغيتهم آلهة، ولكنهم لم يسموها «الله» إذ كانوا يرونه الأصل في الألوهية فحادوا عن تسميتها باسم «الله».

فكما الله واحد في ذاته وأفعاله وصفاته كذلك في اسمه «الله» وقد ذكر في الذكر الحكيم مرة وهي أكثر بكثير من سائر أسمائه وأسماء مَن سواه اهتماماً زائداً به إلى مسماه، وأنه اسم للذات المقدسة المستجمعة لجميع صفات الكمال جمالاً وجلالاً.

ثم ﴿ٱللَّهِ﴾ علم للذات المقدسة، سواء - أكان أصله «الإله»، معرفاً فعلم باختصاص أم علماً في الأصل عربياً كان أم عبرياً أو سريانياً، جامداً أو مشتقاً، كما اختلف فيه علماء اللغة والأدب واحتاروا فيه كما احتار الفلاسفة والعرفاء في ذاته المقدسة وصفاته ذاتية وفعلية.

---

(١) سورة مريم، الآية: ٦٥.

(٢) من لطيف الأمر في ميّزات اسم الجلالة «الله» بين أسمائه الحسنى أنك كلما حذفت منها حرفاً تبقى الدلالة على الذات المقدسة بحاله ومحفوظة عن شريك فـ«الله» تجده محذوف الألف في «الله» ومحذوف اللّام أيضاً في «إله» ثم محذوف اللام الثاني في «هو» حيث الواو ليست فيه متناً يبقى كما وتحذف في «هم - هما» فـ«اللّه» و«هو» اسمان مختصان بالذات المقدسة.

وعلى أية حال فالألف واللّام فيه أصليان لا تسقطان ولا الألف، بخلافهما في التعريف والوصل، فالهمزة أصل وليست وصلاً سواءً أكان أصلها غيرها وهي بديلها أم هي هيه، وحتى إذا كان للتعريف فهو الآن لا يحتاج إلى تعريف فمنسلخ - هو - إذاً عن التعريف.

أو علّه ليس مشتقاً من شيء كما لا يشتق منه شيء، فلا يقال اللّهي أو الّاها أمّا هي.

ولأن «الله» في العبرانية في الأصل «يهواه» وعلى الهامش «الِوَه» فقد نحتمل أنه معرب «الِوَه» أم وله أصل في العربية أيضاً بين «إلّه» و«ولاه» هما من «الِوَه» -.

ولكن «إلوهيم» جمع «الِوَه» قد يجعل الأصل العبراني سواه، فإن الله لا يجمع وقد لا ينافيه كما يجمع الإله أيضاً بالآلهة وإن كان الله ليس ليجمع.

إذاً فـ«إلوه» هو «إلّه» يجمع بـ«إلوهيم» في العبرية وبـ«آلهة» في العربية ولكن «الله» لا يجمع بشيء.

ثم الأصل العبراني لـ«الله» علّه كما أنه «إلوه»: «إلّه» كذلك هو وبأحرى معنوياً «يهواه».

و«الله» كاسم ظاهر لله هو أقرب أسمائه إلى الاسم الباطن «هو» وعلّه مشتق من «هو» كما هو مشتق من «إله» وقد تشهد له آياته الـ«٨٠».

ثم الأصل المشتق منه فعلاً في العربية في نظره لغوية أو سمع مما قدمناه بين «وَلَه - اَلَهَ - اَلِهَ» وتناسبه كلها في معناه، وأصل هذه الثلاث «إلّه».

فهو من «اَلَه» يعني عبد، والله هو المعبود الحق وسائر الآلهة باطلة، أم من ألَهت إلى فلان أي سكنت ولجأت حيث يُطمئن ويسكن إليه ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾[1].

(١) سورة الرعد، الآية: ٢٨.

أم من الوَلَه وهو ذهاب العقل والحيرة الكاملة التائهة، وهو واقع لا مردّ له بالنسبة للسالكين في سبيل المعرفة فقد تاهت العقول عن كنه معرفته.

أم من «لاه»: ارتفع - لأنه المرتفع المترفع عن سائر الكون ذاتاً وصفاتاً وأفعالاً وعن أن تطير إليه طائرات العقول.

أم من «أَلِه فيه يأَلَه ألهاً» إذا تحير، إذ حارت العقول عن كنه معرفته.

أم من «لاه يلوه» إذا احتجت حيث احتجب بكنه ألوهيته، فلا يرتفع حجاب ذاته للسالكين إليه وحتى لأوّل العابدين محمد ﷺ فضلاً عن سواه:

يا من هو اختفى لفرط نوره الظاهر الباطن في ظهوره

أم من «أَلِه» الفصيل إذا ولع بأمه، حيث العباد يولعون به ويتضرعون إليه.

أم من أَلِه الرجل يأَلَه إذا فزع حيث الخلائق يفزعون إليه ويستجيرون به.

ثمانية معان عدد أبواب الجنة الثمان كلها واردة بحق الله تبارك وتعالى فإنه: ١ - المعبود - ٢ - المسكون إليه - ٣ - المؤله فيه - ٤ - المرتفع عن خلقه - ٥ - المتحيّر فيه - ٦ - المحتجب عن خلقه - ٧ - المولَع به - ٨ - المفزوع إليه، وهي كلها منصوصة في روايات عدة متظافرة.

ثم ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ هي في الدرجة الثانية من صفاته وأسمائه الحسنى، فإنها الرحمة العامة بجميع خلقه، ولا تعم صفات ذاته فضلاً عن ذاته، فـ﴿ٱللَّهِ﴾ تعني الذات المقدسة بنوعي الصفات، و﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ تخص صفات الفعل المتشعبة عن صفات الذات: «العلم والقدرة والحياة» فإنها صادرة عن هذه الثلاث، كما هي والذات واحدة وحدة الذات وصفات الذات، دون زيادة صفات على ذات ولا تعطيل للصفات.

ثم ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ هي الثالثة حيث تخص خاصة الرحمات ولا تعم عامتها، وهي والرحمن مبالغتان في الرحمة، ولكنما الرحمن أبلغ من الرحيم لزيادة المبنى وتوسّع المعنى، والرحيم أرق وأدق لأقلية المعنى كمّاً والمبنى، مهما كان كيفها أعمق وأشفق:

تُذكر ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ في سائر القرآن (٥٧) مرة وحدها، أم مع الرحيم التي تقابلها، أم عامة الرحمات التي تفسرها، في حين لا نجد ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ في سائر القرآن الـ(٥٩) مرة، لا نجدها وحدها إلّا قرينة بخاصة من الرحمات تدليلاً على أنها أخص من الرحمن.

والرحمة الرحمانية المطلقة ليست إلّا الخلق والهداية. ﴿... ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[١] وهي الهداية العامة التي تعم كلّ شيء.

ومن ثم سائر الرحمات كلها رحيمية قياساً لها، مهما كانت بالنسبة لبعض البعض، رحمانية ورحيمية مع بعض.

فـ﴿رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾[٢] رحمانية مطلقة، و﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ﴾[٣] رحيمية بالنسبة لمطلق الخلق، ولكنها رحمانية أمام ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥﴾[٤] ثم وهذه الرحيمية رحمانية بالنسبة لرحمة الإيمان في الإنسان المعلّم ما لم يعلم.

وفيما يروى عن الرسول ﷺ وأئمة أهل بيته عليهم السلام تجاوب لطيف حفيف مع الآيات كما هي دأبهم دائبين مشياً على ضوء القرآن الكريم!

(١) سورة طه، الآية: ٥٠.
(٢) سورة العلق، الآية: ١.
(٣) سورة العلق، الآية: ٢.
(٤) سورة العلق، الآيات: ٣ - ٥.